المقصورة العليَّة
للشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ
دراسة بديعيَّة

حيدر عليّ الفتلاويّ

باحث في ديوان الوقف الشيعي في الديوانيَّة

Al-Maqsura Al-Aliyya
by Sheikh Muhammad Ali Al-Yaqubi:
A Rhetorical Study (Art of Badi')

Haider Ali Al-Fatlawy
Researcher at the Shiite Endowment Directorate
in Diwaniyah

الملخَّص

تعـدُّ الأراجيز جزأً لا يجتزَّأ من تراثنا العربيّ القديم، الذي يدلُّ على هويَّتنا الأدبيَّة، فبالأراجيـز انتقلـت إلينا الكثـير من العلـوم العربيَّة التـي كانت نتاجًا لهـذا المجتمع، ولاسـيما الأراجيز التـي وصلتنا مـن العصر العبَّـاسيّ والعصـور المتأخِّـرة، كالعلميَّة منهـا مثـلًا، وهي كثيرة ومتنوِّعة، وكـذا انتقلت إلينا الكثير مـن الأراجيز التي تناولت الأحـداث التاريخيَّة والقصص والحكايا، لذا فهي نمط أدبيّ يليق بالدراسـة والكشـف عن مكنون غوره، ومن هذا كانت أرجوزة الشيخ التي تسمَّى (المقصورة العليَّة)، والتي تناول فيها السـيرة التاريخيَّة للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد لاحظت أنَّ أسلوب هذا الرجل ينماز بالبديع، لذا كانت هذه الدراسة.

ولا يخفى على القارئ الفطن أهميَّة الدراسـات التراثيَّـة المماثلة من نواحيها اللغويَّة والبلاغيَّـة، وحتَّى من جانب النقد الثقافيّ لها، وكشـف مصـادر ثقافة الأديب، إذ تُلقي عندئـذٍ الضوء على البيئـة الثقافيَّة التي عاش بهـا الأديب، وتركِّز على مـدى تأثُّره بهذه البيئة.

الكلمات المفتاحيَّة: محمَّد عليّ اليعقوبيّ، الأرجوزة، المقصورة العليَّة، البديع.

Abstract

Urjuzas (poetic epics in the Rajaz metre) constitute an integral part of our ancient Arabic heritage, which in turn reflects our literary identity. Through these Urjuzas, a vast amount of Arabic knowledge and sciences -born out of that society- has been transmitted to us, particularly those reaching us from the Abbasid and subsequent eras. Scientific Urjuzas, for instance, are numerous and diverse. Furthermore, many Urjuzas addressing historical events, stories, and tales have also been passed down, making this a literary genre well-deserving of study and deep exploration. Hence, this study focuses on the Urjuza of the Sheikh, titled (Al-Maqsura Al-Aliyya), in which he chronicles the historical biography of Imam Ali bin Abi Talib (PBUH). Noting that the author's style is distinguished by the art of Badi' (rhetorical embellishments), this research was conceived.

As is well known to the discerning reader, the importance of similar heritage studies lies in their linguistic and rhetorical dimensions, as well as their capacity for cultural criticism.

Uncovering the sources of the writer's intellect sheds light on the cultural environment in which they lived and highlights the extent of that environment's influence on them.

Keywords: Muhammad Ali Al-Yaqubi, Al-Urjuza, Al-Maqsura Al-Aliyya, Badi' (Rhetoric).

المقدِّمة

حينما قرأت المقصورة العليَّة للشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ، لاحظت فيها كثرة فنون البديع، ممَّا دلَّني على تعلُّقه بعلم البلاغة، وفي هذا الفنِّ بالتحديد، فعرفت إذ ذاك أنَّها تستحقُّ الدراسة من هذا الجانب، ومن جانب آخر، فإنَّ عدم وجود دراسة مماثلة لهذه الأرجوزة، على حدِّ علمي، أكَّد لي كفاية ذلك السبب ليكون دافعًا لدراستها، لكنِّي بعد ذلك رأيت أنَّ الشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ التبريزيّ يليق بتسليط الضوء عليه؛ لتتمَّ دراسته من جديد، إذ نُسِيت هذه الشخصيَّة تمامًا من الدراسات الحديثة، كما نُسي غيره، وقد جعلت ذلك سببًا آخر للولوج إلى هذه الدراسة، لذا كان هذا البحث الذي يتناول في محتواه دراسة مقتضبة لحياة الشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ رحمه الله، انتقل منها للتعريف بالمقصورة العليَّة، التي هي موضوعة البحث، ثمَّ دراسة أسلوبه الذي كتب به مقصورته، وكانت الدراسة تتناول الأسلوب البديعيّ من جهة، واللغويّ من جهة أخرى، ثمَّ انتقلت لدراسة المميِّزات العامَّة لاسلوبه في كتابتها، وختمت بحثي ببعض الاستنتاجات التي توصَّلت إليها في هذا البحث. وأنَّ قلَّة المصادر التي تتناول حياة الشيخ رحمه الله، كانت تمثِّل جزءًا من صعوبات العمل على إتمام البحث بشكله المتكامل، يُضاف إلى ذلك أنَّ الدراسات البديعيَّة في الشعر قليلة المصادر بالنسبة غيرها أيضًا.

لكنَّ الدراسة هذه تمَّت على الرّغم من صعوباتها، لذا فإنَّ ما جاد به قلم الباحث لا يخلوا حتمًا من الخطأ والتقصير ؛ لأنَّ هذا ما جاد به فكرنا، ولا يتعدَّى الإنسان حدود فكره أبدًا.

قبس من حياة الشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ

ولِـد الشـيخ محمَّد عليّ بن الحاج يعقـوب التبريزيّ اليعقوبيّ[١]، في منتصف شـهر رمضان المبارك لسـنة١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، في مدينـة النجف الأشرف، ولظروف قاهرة هاجرت أسرته إلى مدينة الحِلَّة[٢]، وكان جلُّ تحصيله العلميّ من محاضرات يُلقيها عليه السيِّد محمَّد القزوينيّ، ذلك الرجل الذي رأى فيه روح الهداية، فحثَّه عليها بمعيَّة والده الحاج يعقوب بن الحاج جعفر[٣]، ولكن من الاطِّلاع على شـعره، يبدو للقارئ الكريم أنَّـه لم يكتفِ بمحاضرات السـيِّد محمَّـد القزوينيّ، بل اطَّلع على علـوم العربيَّة والمنطق والتاريخ بشكلٍ لا بأسَ به[٤].

واسـتمر بإلقـاء المحاضرات الدينيَّة لسـتِّين عام من عمره، حتَّـى أُطلق عليه لقب شـيخ الخطبـاء[٥]، وكان خطيبًا بارزًا، لـه صيته في جميع المحافل، وبمسـتويات متباينة، وكان ممدوحًا من ذوي الاختصاص.

(١) واليعقوبيّ لقب أطلقه على نفسه نسبةً لأبيه فقط، وهو ليس كما يفهمه البعض عن نسب حفيده الشـيخ محمَّد بن موسـى بن محمَّـد عليّ اليعقوبيّ، حيث يـرى البعض أنَّه مـن قبيلة الأعاجيب، ويـرى آخـرون أنَّه من قبيلـة الأوس. ينظر: شـعراء الحِلَّة او البابليَّات، الشـيخ عـليّ الخاقانيّ: ٢/ ١٨٢.

(٢) معجم الخطباء، داخل السيِّد حسن، دار الصفوة، بيروت/ لبنان: ٣/ ٣١.

(٣) معجم الخطباء: ٣٢.

(٤) يظهـر ذلك جليًّا في بحثنا السـابق المنشـور في مجلَّـة أصالة، الصادرة بعددهـا٣٢-٣٣ في تمُّوز ٢٠١٢.

(٥) معجم الخطباء: ٢٧.

هاجر الشيخ مع عائلته، بأثر ثورة الأهلين على الحكومة المحليَّة، من الحِلَّة إلى قرية جناجة قرب طويريج، واستغلَّ الفرصة كأيِّ ذي لبٍّ، إذ يراها أمامه، فأكثر من اللقاء بالشاعر محمَّد حسن أبو المحاسن، ودرس الأدب على يديه، واستفاد كثيرًا من مجاميعه المخطوطة التي كانت تحتوي على المختارات من آثار أدباء كربلاء وبغداد والنجف[1]، وهنا يمكن ملاحظة أنَّ الشيخ اليعقوبي رحمه الله لم يكن ميَّالاً لفكر الثورة التي حصلت بين الأهالي والحكومة المحليَّة، بل كان يميل إلى الهدوء النسبيّ والسكينة والعزلة، ولهذا فإنَّ الشيخ لم يكن ميَّالًا الى الجانب السياسيّ البتَّة، بقدر اهتمامه بالثقافة.

ويبدو أنَّ اهتمامه بالثقافة والعلم جعله يُنشئُ مكتبة علميَّة عامرة، كان فيها من الكتب والمخطوطات ما ينتفع به في مجال تخصُّصه في الخطابة والتأليف، ويلاحَظ ذلك من ذِكر الخاقانيّ أنَّ مخطوطة ديوان السيِّد صادق الفحام، التي هي بخطِّ السيِّد أحمد بن السيِّد حبيب زوين، وجِدَت في مكتبته[2]، وأُشير إلى أنَّه يحتفظُ ببعض نوادر الكتب، وقد اشترى بعض مخطوطات الشيخ محمَّد السماويّ بعد ما بِيعَت.

وكان الشيخ اليعقوبيّ يتنقَّل بين الكوفة والحيرة والنجف؛ لأجل الوعظ والإرشاد ونشر الثقافة الإسلاميَّة، ومن الجدير بالذِّكر أنَّه أسَّس مع رفاقه من الأدباء الرابطة الأدبيَّة سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، وانتُخب رئيسًا لها بعد ذلك إلى أن وافاه الأجل في يوم الأحد من شهر جمادى الثانية ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٨م.

(١) معجم الخطباء، ٣٥. يشير المؤلِّف إلى أنَّ هذه المجاميع كانت تحتوي على الكثير من قصائد أدباء كربلاء وبغداد والنجف، وهذا يعني أنَّ شعر المجاميع المخطوطة ليست لمحمَّد حسن أبو المحاسن، بل هو جامع لها على أيِّ حال.

(٢) شعراء الحِلَّة أو البابليَّات، الشيخ عليّ الخاقانيّ: ٣/ ٣٧.

لقد ازدهرت حياته بالعطاء، وقدَّم العديد من الخدمات على المستوى الإسلاميّ والأدبيّ والاجتماعيّ، ثمَّ إنَّ خبر وفاته أحدث هزَّة في الأوساط الاجتماعيَّة والسياسيَّة والدينيَّة.

ولـمَّا لاحظ الدكتور السيِّد عبد الصاحب الموسويّ أثره الطيِّب، قدَّم في حياته أطروحة جامعيَّة نال بها درجة الدكتوراه، وأخرجها للطبع، ثمَّ أُعيد طبعها في إيران[1].

وأخيرًا فإنَّ المترجَم له ذُكِر كثيرًا في كتب التراجم، إلَّا أنَّه ظُلِم في جانب الدراسات التي تتناول الآثار التي تركها وراءه، فتراثه ما يزال به حاجة إلى دراسة، ما لم تكن هناك دراسات غابت عن نظري، فلا بدَّ إذن من التوجُّه لطرحه على المستوى البحثيّ في وقت من الأوقات؛ للإشارة إلى أثاره ومؤلَّفاته عبر دراسات أكاديميَّة متخصِّصة.

التعريف بالمقصورة العليَّة

المقصورة العليَّة قصيدة كُتِبت عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٧م، وطُبعت نسختها بديوان الشاعر المسمَّى بـ(الذخائر)، وتتكوَّن من أربعمائة وثلاثة وخمسين بيتًا من الشعر، وقد قرَّض هذه القصيدة كلٌّ من الشيخ محمَّد حسين كاشف الغطاء، والسيِّد رضا الهنديّ، والأستاذ محمَّد مهدي الجواهريّ رحمهم الله. وقد ذكرها صاحب المعجم[2]، وتمثِّل المقصورة مزيجًا رائعًا يوائم به الأديب الحدث التاريخيّ بشتَّى رواياته ومصادره، مع الأدب الذي يمثِّل القالب الأسلوبيّ الذي يحاورنا الأديب من خلاله عبر السنين، فهو يروي لنا قصَّة بطل حقيقيّ عاش في زمان ومكان محدَّدَين، وهو بعيد كلَّ البعد عن أساطير الفرس

(١) معجم الخطباء: ٣٠.

(٢) معجم الخطباء: ٣٠.

والرومان، سكن بيوت الطين متنقلًا بين الحجاز والكوفة، من بلاد وادي الرافدين في أرض نوح السومريّ عليه السلام، على الرغم من مُلكه العظيم، وأقام العدل بعد انتشار الظلم. لقد كان رجلًا يتباهى به الفرسان، وينبهر به أرباب الفكر، لـمَّا وضع رايات العرب التي تمثِّل مجدهم وأمانيهم جانبًا، وحمل على عاتقه رايةَ الحرب من أجل إعلاء كلمة الحقِّ، فقد أفرغ ذهنه من كلِّ شيء غير المعرفة، وطرد من قلبه كلَّ شيء غير الحبِّ، وخصَّ به الله الخالق والرسول صلى الله عليه وآله، ومن أوصوا بمحبَّتهم كالفقراء والمعدمين والمحرومين، فأودع الله سبحانه وتعالى به حبَّ الخلائق كلَّها، وأودع حبَّه عند الخلائق، فاغتاظ منه أهل الشقاق والنفاق، وحسده لذلك أهل الغلِّ والحقد، فكادوا له كيدًا، فجعلهم الله الأخسرين، وهو الذي لم تقبض يمينه بقدر ما أعطت، فكان يوم العطاء كمن أرخص أمامه الدنيا بأجمعها، فلم يعرف المنع والشحَّ والبخل.

وعن مثل هذا الرجل، حدَّثنا الشيخ اليعقوبي رحمه الله بقصيدته المقصورة، التي كان قد ابتدأها بمقدِّمة شعريَّة مطوَّلة بعض الشيء، إذ بلغت أربعًا وخمسين بيتًا، ثم قسَّم شعره فصولًا تتفاوت من ناحية الطول والقصر؛ بحسب اقتضاء الحاجة، ثمَّ إنَّ هذه الفصول يحتوي كلُّ فصل منها على مزيَّة من مزايا أمير المؤمنين عليه السلام.

ثمَّ ختم مقصورته بذِكر ولديه الحسن والحسين، والتوسُّل به إلى الله سبحانه وتعالى، ثمَّ أوى بشعره إلى خاتمة لطيفة، بها كان تمام رحلته الشعريَّة في الإمام عليّ عليه السلام[1].

لكنَّني اعتقد أنَّ نجله الشيخ موسى اليعقوبيّ، جامع الديوان، كان قد أخطأ في ترتيب بعض الفصول؛ لأنَّ فيها من المواضيع ما يستحقُّ أن يقدَّم على غيره، مثل (بدء خلقته ومولده ونشأته)، الذي من المفروض أن يقدَّم على غيره، ومن المرجَّح أن يكون

(١) الذخائر، محمَّد عليّ اليعقوبيّ، ط١: ١٠٣، ١٤٤، صحَّحها موسى اليعقوبيّ.

أوَّل فصل بعد المقدِّمة مباشرة، وكذلك (مبيته على الفراش، وحمل الفواطم)، فمن الأولى أن يقدَّم، ويؤخَّر مكانه (تزويجه بفاطمة)، وغير ذلك.

ومن جملة الأمور التي أخذت بنا إلى جماليَّة هذه القصيدة، وجود المحسِّنات البديعيَّة فيها بكثرة وجودة؛ ممَّا أضفى عليها طابعًا حلوَ المذاق بالنسبة لمن يتذوَّق التاريخ والأدب، فشكَّل طعمًا خاصًّا يخطف المتتبِّع والقارئ عن غيرها إلى تذوُّق فكرتها، واستحسان أسلوبها، وهو ما حدا بنا بالضبط إلى دراسة هذه القصيدة من زاوية المحسِّنات البديعيَّة التي تشكِّل ظاهرة في شعره، كما قلنا.

نماذج من البديع في شعره

البديع لغةً: هو الإنشاء على غير مثالٍ سابقٍ، وأبدع الرجل إذا أتى بالبديع، والإبداع، عند الفلاسفة: إيجاد الشيء من عدمٍ، وهو أخصُّ من الخلق[1]، والبديع هو المبدع، كما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

وفي الاصطلاح: هو علم تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظيّ أو المعنويّ[3]. أو هو «علم يُعرَف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة»[4]، وهو أيضًا «علم يُعرَف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على

(١) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الحسن الزيَّات، حامد عبد القادر، محمَّد عليّ النجَّار، المكتبة الإسلاميَّة للطباعة والنشر والتوزيع: ١/ ٤٣، ينظر أيضًا: المنجد في اللغة، لويس معلوف، مؤسَّسة انتشارات دار العلم: ٢٩.

(٢) القران الكريم، سورة البقرة: ١١٧.

(٣) البلاغة الواضحة، عليّ الجارم، مصطفى أمين، مؤسَّسة الصادق للطباعة والنشر، طهران: ٢٦٣

(٤) البديع في شعر الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام وجهاده العلميّ، حوراء كاظم جواد الخزاعيّ،=

مقتضى الحـال ووضوح الدلالة»[1]، وهو يتكوَّن من المحسِّـنات اللفظيَّة والمعنويَّة التي تُضاف الى الكلام، فمن محسِّـناته اللفظيَّة الجناس والاقتباس والسَّـجع، ومن محسِّـناته المعنويَّة الطبق والتورية والمقابلة وحسن التعليل، وغيرها.

لقد انماز الشـيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ رحمه الله بأسلوب بلاغيٍّ رائع في قصيدته المقصورة، فقد تأرجح كثيرًا بين الأسـاليب البديعيَّة، وطار في سمائها محلِّقًا ينشد الجودة والإتقان، وإتحاف مسـامع القارئ النَّهِم، وكأنَّه أراد القول بأنَّه أنشـدها راغبًـا في إبداء تمكُّنه من الفنون البديعيَّة تحديدًا، وهذا ما حدا به لأن يركِّب أغلب صوره الشـعريَّة منها، وذلك لأنَّه لم يكن بمعزل عن البيئة الأدبيَّة بطبيعة الحال، فجلُّ الشعراء المعاصرين له اعتمدوا الإسلوب عينه في تلك الفترة، فتراهم يعيشون لحظة الجودة والإتقان من زاوية البلاغة، لـذا يمـرُّ الأديب بقصيدتـه المقصورة عـلى الكثير من المحسِّـنات اللفظيَّـة، والمعنوية، وسندرسـها بحسـب الأهميَّة في شـعره، فقد أورد الجناس في مقصورته، وهو «أن يتَّفق اللفظان في النطق، ويختلفان في المعنى»[2].

مثل قوله:

الْـيَـوْمَ سِرُّ الـدِّيـنِ وَالـدُّنْـيَـا عَـلى
سَرِيـرِهِ فَـوْقَ الـرِّقَـابِ قَـدْ سَرَى[3]

وقوله:

=بحث منشـور في مجلَّة الكليَّة الإسلاميَّة الجامعة، ع٤٦: ٣/ ٥٤٠، ينظر أيضًا: المنجد في اللغة، لويس معلوف، مؤسَّسة انتشارات دار العلم: ٢٩.

(١) البديع في شعر الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام وجهاده العلمي: ٣/ ٥٤٠.

(٢) جواهـر البلاغـة في المعاني والبيان والبديع، السـيِّد أحمد الهاشـمي، دار طريـق المعرفة: ٢٤٣، البلاغة الواضحة: ٢٦٥ .

(٣) الذخائر: ١٣٠.

لله خَـطْـبٌ مَـا أَجَـلَّ وَقْـعَـهُ
حَـطَّـمَ أَرْكَـانَ الْحَـطِـيـمِ وَالـصَّـفَـا[1]

وقوله:

مَـا زَالَ مَـقْـهُـورًا يَـرَى الْأَمْـرَ لِـمَـنْ
لَـيْـسَ يُـدَانِـيـهِ بِـفَـضْـلٍ وَنُهَـى[2]

وقوله:

أُخْـفِـي هَـوَاكُـمْ خِـيـفَـةَ الْـوَاشِي بِـهِ
مَـا حِـيـلَـتِـي إِنْ نَـمَّ دَمْـعِـي وَوَشَـى

وهنا يمكن ملاحظة الجناس غير التامِّ في الكلمات الآتية، وطريقة استخدامها في شعره (سر، سرير، سرى)، (حطم، حطيم)، (أخفي، خيفة)، إذ جعل لها موسيقى تأخذ الانتباه إليها من جهة، واستعملها لمغايرة المعنى من جهة أخرى.

وقد أورد المقابلة في أشعاره بشكل رائع، متأسِّيًا بشعراء مرحلته الذين أنشدوها، والمقابلة أن يؤتى بمعنَيَين متوافقَين أو أكثر، ثمَّ يأتي بما يقابل ذلك على الترتيب[3]. قال:

قَـدْ أَخَّـرُوا أَفْـضَـلَـهُـمْ وَقَـدَّمُـوا
الْمَـفْـضُـولَ فِـيـهِـمْ فَـعَـلَى الـدُّنْـيَـا الْـعَـفَـا[4]

وقوله:

سَـارَتْ لِـنَـكْـثِ عَـهْـدِهِ طَـائِـفَـةٌ
تَـنْـوِي لَـهُ الْـغَـدْرَ وَتُـظْـهِـرُ الْـوَفَـا[5]

(١) الذخائر: ١٣٠.
(٢) الذخائر: ١٢٦.
(٣) جواهر البلاغة: ٢٢١، البلاغة الواضحة: ٢٨٥.
(٤) الذخائر: ١٢٦.
(٥) الذخائر: ١٢٧.

ويمكنك أنْ تلاحظ ها هنا أنَّ الكلمات الآتية حملت المعنى الاصطلاحيّ للمقابلة، إذ أورد معاني وقابلها بما يغاير معناها على التتابع (أخروا أفضل، قدموا المفضول)، (تنوي الغدر، تظهر الوفا)، وجاء رادًّا الصدر على العجز أيضًا، وهو من فنون البديع، أي إنَّه كان يحمل المعاني والألفاظ نفسها التي استعملها في الصدر إلى العجز، كأحد الأساليب التي يحسِّن الأديب بها ألفاظ قصيدته، فقال:

إِنْ جِئْتَ ذَيَّاكَ الْحِمَى نِلْتَ الْمُنَى
نِلْتَ الْمُنَى إِنْ جِئْتَ ذَيَّاكَ الْحِمَى[1]

لَوْ كَانَ مِثْلِي قَدْ صَبَا مَا لَامَنِي
مَا لَامَنِي لَوْ كَانَ مِثْلِي قَدْ صَبَا[2]

عَلَى السَّخَا قَدْ جُبِلَتْ رَاحَتُهُ
رَاحَتُهُ قَدْ جُبِلَتْ عَلَى السَّخَا[3]

خَيْرُ الْوَرَى حَيْدَرُ بَعْدَ أَحْمَدَ
حَيْدَرُ بَعْدَ أَحْمَدَ خَيْرُ الْوَرَى[4]

وعلى الرغم من أنَّ ردَّ الصدر على العجز من فنون البديع اللفظيَّة، إلَّا أنَّ القارئ يستشعر به معنى التوكيد اللَّفظيّ، إذ تكرَّر به جملة الصدر كاملة في العجز، ثمَّ تراه يستعمل الطباق في بعض أبياته، وكان مجيدًا في استعماله، «والطباق هو الجمع بين الشيء وضدُّه في الكلام»[5]، كقوله:

(١) الذخائر: ١٣٤.
(٢) الذخائر: ١٠٤.
(٣) الذخائر: ١١٣.
(٤) الذخائر: ١٣٠.
(٥) جواهر البلاغة: ٢٢٠، البلاغة الواضحة: ٢٨١.

وَفَـيْـتُ بِـالْـعَـهْـدِ وَخُـنْـتُـمْ مَـوْثِـقِـي
أَهَـكَـذَا بِـالْـغَـدْرِ يُجْـزَى مَـنْ وَفى[1]
يَـا أَيُّهَـا الْـغَـادُونَ عَـنِّـي أَنْـتُـمُ
أَحِـبَّـتِـي عَـلَى الْـوِصَـالِ وَالْـجَـفَـا[2]

ففي الكلمات (وفيت، وخنتم)، (غـدر، وفى)، (الوصال، الجفا) يلاحَظ جمعهُ بين المعـاني وأضدادها بشـكل جميـل يحقِّق المعنى الاصطلاحـيّ للطباق، وكذا قام الشـيخ باقتباس الكثير من النصوص القرآنيَّة والشـعريَّة والدعـاء والكلام المأثور، حتَّى جعل لمقصورتـه علاقة من نوع خـاص بالاقتباس دون غيره من الفنـون، والاقتباس كما هو معروف أنَّه: تضمين النثر أو الشـعر شـيئًا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، من غـير دلالة على أنَّه منهما، ويجوز أنْ يغيِّر مـن الأثر المقتبَس قليلا[3]. وأذكر لك من ذلك أمثالًا، فقد قال:

أَيْ وَالَّـذِي قَـدْ سَـمَـكَ الـسَّـبْـعَ الْـعُـلى
بِـلَا عِـمَادٍ وَعَـلَـى الْـعَـرْشِ اسْـتَـوَى[4]

وكان يشـير الى قولـه تعـالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ..﴾[5]

(١) الذخائر: ١٠٥.
(٢) الذخائر: ١٠٥.
(٣) البلاغة الواضحة: ٢٧٠.
(٤) الذخائر: ١١٠، وفيها إشارة إلى بيت قاله السيِّد محمَّد سعيد الحبُّوبيّ، وهو:
لا والَّـذِي سَـمَـكَ الـسَّـمَاوَاتِ الـعُـلى وَأَقَـامَـهُـنَّ وَمَـا أَقَـامَ عِـمَادَا
ينظر: ديوان السيِّد محمَّد سعيد الحبُّوبيّ النجفيّ، تصحيح وتذييل: الشيخ عبد العزيز الجواهريّ، المطبعة الأهليَّة، بيروت، لبنان: ١٣٣١/ ١٠٥.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٢.

وقوله:

قَـــدْ جَـعَـــلَ اللهُ مِـــثَـــالَ نُـــورِهِ

أَمَـــامَ أَمـــلاكِ الـــسَّـــماوَاتِ الـعُـلى[1]

وهنا يشير الى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾[2].

وقوله:

وَلَـــيـــسَ للهِ الـعـظـيـمـش نَـبَـأ

أَعـظَـم مِـنـهُ اخـتَـلَـفَـتْ فِـيـهِ المـلا[3]

مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾[4]، بقرينة الاختلاف فيه، واقتبس نصوصًا أخرى غير القرآن، ليلمِّع بها مقصورته من ألوان شتَّى، ومن ذلك الأمثال والدعاء ونصوص التراث القديم، كنهج البلاغة مثلًا، ومن ذلك قوله.

وَالـنَّـاسُ في طَـخْـيـاء حـتَّـى ارتَـطَـمُـوا

بِـالجَـهـلِ حـتَّـى بَـلـغَ الـسَّـيـلُ الـزُّبَـى[5]

ويُقال: (بلغ السيل الزبى) للأمر إذا اشتدَّ حتَّى يتجاوز حدوده[6]، فتصعب

(١) الذخائر: ١٠٨.

(٢) سورة النور، آية: ٣٥.

(٣) الذخائر: ١٠٨.

(٤) سورة النبأ، آية: ١-٣.

(٥) الذخائر: ١٢٦.

(٦) أشار بـ(بلغ السيل الزبى)، مثل وردَ في جمهرة الأمثال، لأبي الهلال العسكريّ، دار الفكر،=

السيطرة عليه.

وَرَاحَ يَستَقِيلُ فِيهَا حَيْثُ لا
يُقَال مِن عِثَارِهِ فَلا لَعَا[1]

وترد كلمة (فلا لعا)، أو (فلا لعا له) كجملة دعائيَّة، بمعنى لا أقاله الله من عثرته، كما هو معروف في استخدام العرب قديمًا لهذه العبارة.

لَكِنَّهُ أغْضَى وفِي العَينِ قَذَى
مِمَّا يُعَانِيه وفِي الحَلقِ شَجَا[2]

وقد اقتبس ذلك من كلام الإمام عليّ عليه السلام في خطبته المعروفة بالشقشقيَّة: «**فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا**»[3]. ثمَّ تجده ينتقل إلى فنٍّ آخر، وهو أنْ ينكر الأديب العلَّة الطبيعيَّة للأشياء، ثمَّ يحاول إيجاد مسوِّغ منطقيّ لها، ويستعمل هذا الأسلوب لكلِّ شيء أو حدث لا يمكن تسويغه بسهولة، وهذا كما هو معروف أحد الفنون البديعيَّة المهمة التي تُستعمَل لتدلَّ على مكنة الأديب في قوَّة التسويغ، وحسن التعليل، وهو في الاصطلاح: «أنْ ينكر الأديب صراحةً أو ضمنًا علَّة الشيء المعروفة، ويأتي بعلَّة طريفة تناسب الغرض الذي يرمي إليه»[4]، كما أشار إلى ذلك بقوله:

وَلَيسَ بِدْعًا أن يَكُونَ عِندَه
أَقصَى الأقَالِيمِ وأدنَاهَا سِوا

=ط٢: ١/ ٢٢٠، والمستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف، لبهاء الدين أبي الفتح محمَّد أحمد بن منصور الأبشيهيّ، دار الشرق العربيّ، ط١: ٤٨.

(١) الذخائر: ١٢٧.

(٢) الذخائر: ١٢٧.

(٣) نهج البلاغة، شرح محمَّد عبده: ٣١.

(٤) جواهر البلاغة: ٢٢٣، البلاغة الواضحة: ٢٨٩.

وربَّما أُخذ عليه تجاوز استخدام المعنى المتعارف، كقوله:

فَـآصِـفُ قَـبـلَ ارتـــدَادِ الـطَّـرفِ مِـن
صَـنْـعَـا أَتَـى بِـعَـرشِ بَـلـقِـيـسَ سَـبَـا
فَـهـوَ كَـمـثـلِ الـشَّـمـسِ في أفـلَاكِـهَـا
وَنُـورهَـا يَـمـلأُ أجـــوَاءَ الـفَـلا[1]

وهنا يجعل من انطواء الأرض له أمرًا لا يستدعي الغرابة، فهو يسيرٌ على رجل مثل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمَّ يحاول أنْ يورد سببًا يحسن به تسويغ رأيه، كما حصل مع آصف ابن برخيا[2] الذي يرد ذكره في تواريخ الأنبياء على أنَّه هو من حمل عرش بلقيس، فقد وصف له مثيلًا أسبق منه بهذه القدرة، ثمَّ جاءت مقدرته على حسن التسويغ في البيت الأخير، إذْ شبهه بالشمس التي هي مستقرَّة في مكانها، على حين أنَّ نورها ينتشر في كلِّ مكان.

وقال أيضًا مسوغًا لحادثة ردِّ الشمس له عليه السلام، كما في رواية مشهد الشمس في بابل، وهنا نلاحظ أنَّه استخدم الحجَّة السابقة نفسها في تسويغه لهذه الحادثة، إذ جعلها مكرَّرة مع شخص آخر، وهو يوشع بن نون[3].

وَقَـــامَ في أصـحَـابِـهِ مُـصَـلِّـيًـا
بِـهِـمْ صَـلَاةَ الـعَـصرِ مِـنْ بَـعـدِ الـعشَـا

(١) الذخائر: ١١٥.

(٢) رجل من علماء بني إسرائيل، ورد ذكره في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي..﴾. سورة النمل، آية: ٤٠.

(٣) يوشع بن نون، هو فتى نبيّ الله موسى الذي يرد في تواريخ الأنبياء، وقد ورد في القرآن الكريم أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾. سورة الكهف، آية: ٦٠.

لَا غـــروَ أنْ رُدَّتْ لـــهُ فـإنَّهـا
رُدَّتْ عَـلى يـوشَـع قَـبْـل مُـذْ دَعَـا[1]

وتلاحظ عزيزي القارئ في هذه الشواهد التي أخذتها لك، لا على سبيل الحصر، بل انتقيت منها الأفضل والأوضح ؛ لأنَّ حصر شواهده البديعيَّة ودراستها تحتاج إلى جهد غير هذا؛ لأنَّه نوَع تلك الفنون، ولم يثبت على جانب دون غيره، أو فن دون آخر، فقد ضرب بكلِّ وتر يستسيغه السمع، ويحب نغمه، حتَّى أجاد في ذلك وأفلح في الوصول إلى غايته التي قصدها، وهذا ما نسمِّيه بهدف البلاغة العربيَّة؛ لأنَّها تهدف إلى الوصول والانتهاء إلى القصد بكلِّ فنٍّ جميل، وتعبير يسير.

لغته الشعريَّة

وعلى الرغم ممَّا قلنا في دراستنا، كانت لغته الشعريَّة رائعة يسيرة سَلِسَة تنساب في أثناء إلقائها وسماعها كانسياب الماء من المنحدر الصقيل، إلَّا في بعض القوافي التي تضطرُّه إلى اللجوء إلى الكلمات غير المتعارفة في الأدب المعاصر، إلَّا أنَّ القارئ الفطِن قد لا تغيب عليه حتَّى هذه الكلمات، كقوله: (شجا وخوى والسهى والطلا وسبا والشبا والقهقرى) وغير ذلك، فهي اليوم تعدُّ من الكلمات المعجميَّة، وقد زادت لغته غموضًا أسماء الأعلام والبقاع والمناطق والمدن بالنسبة إلى المتطلِّع في مجال الأدب، أمَّا القارئ النابه فلا تغيب عنه هذه الكلمات أيضا، كـ(تهامة والعريش وجلَّق وثهلان وضجنان وبلقيس وتبوك يوشع وشيبة الحمد والحميري وآصف والحارث) وغيرها، وهذا كلُّه لا يعني أنَّ لغته صعبة، لا هي في مستوى القارئ الفطن تمامًا، ولا تؤثِّر كلماتي هذه على وصفنا للغة القصيدة، وكونها كما وصفناها سابقًا بالماء المنساب من المنحدر الصقيل؛ لتنوُّع اللغة من مكان إلى آخر، على اعتبار أنَّ المؤلِّف

(١) الذخائر: ١١٥.

لا يورد الكلمات الصعبة في كلِّ بيت، بل إنَّ الحاجة إليها تلحُّ عليه في الغالب؛ لأن يذكرها، إلَّا أنَّه أحسن صنعًا، إذْ حصرها في أسماء الأعلام والمناطق والأمكنة فقط.

المميِّزات العامَّة لأسلوبه في كتابة المقصورة

لـمَّا كان الموضوع الأساس الذي تهدف إليه المقصورة العليَّة، هو سيرة الإمام عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، انماز الشيخ اليعقوبيّ بكتابة قصيدته المقصورة بشيء من السرد التاريخيّ، فهو يسرد الأحداث بتتابع مشوق، ولاسيما تلك الفصول التي يتحدَّث بها عن بدء خلقه عليه السلام، ومولده ونشأته [1] وموقفه يوم بدر [2]، وأُحد [3] وحُنين [4]، ويلحظ أيضًا عنده أسلوب الدفاع عن العقيدة التي يعتقد بها، فقد أشار إلى حادثة الغدير بهذا الأسلوب، فأنت حينها ترى عنده نفس الأديب الجماليّ، وتشم منه رائحة الأديب المدافع عن القضية، فقد قال:

كُلُّ نَبِيٍّ مَا قَضَى إِلَّا وَقَدْ
نَصَّ عَلَى وَصِيِّهِ ثُمَّ قَضى
هَذَا عَلِيٌّ فِيكُمْ خَلِيفَتِي
فَلْيُبْلِغِ الْقَرِيبُ مِنْكُمْ مَنْ نَأَى
مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيُّهُ
فَرْضٌ مِنَ اللهِ عَلَى كُلِّ الْمَلا

(١) الذخائر: ١١٦.
(٢) الذخائر: ١٢٠.
(٣) الذخائر: ١٢١.
(٤) الذخائر: ١٢٣.

إِنَّ الْجَلِيلَ اخْتَارَهُ فَلَيْسَ لِلْـ
ـأُمَّةِ أَنْ تَخْتَارَ مِنْهَا مَا تَشَا
إِنْ لَمْ تَدِينُوا بِالْمُوَالَاةِ لَهُ
فَكُلُّ أَعْمَالِكُمْ بَعْدِي هَبَا[1]

كما وحاول جاهدًا تضمين النَّص التاريخي الوارد في مصادر التاريخ على حاله، كمحادثة تحاور بها شخصان مثلًا، أو مراسلة ما، كما في قوله:

كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكْتُبُوا إِلَيْهِ قَدْ
أَعْشَبَتِ الْأَرْضُ وَأَزْهَرَنِ الرُّبَا
أَقْدِمْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْمَعَنَا
فِيكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ وَالْهُدَى[2]

ويؤخذ عليه بعض التجاوزات على استخدام المعنى المتعارف، كقوله:

للهِ قَلْبُ المرتَضَى لَوْ أنَّ مَا
فِيهِ مِنَ الوَجْدِ بِثَهلَانَ وهَى[3]

فالوجد في اللغة هو الحزن[4]، وقد جرت عادت الأدباء على استخدام هذا اللفظ للشوق وحرقة الحب وألم الهجر، وكلُّ ما قرب من هذه المعاني، فلذا يكون قد تجاوز على المعنى المتعارف عند الأدباء، وقد يكون اعتمد بحسب رأيه اللغة المعجميَّة في هذا اللفظ.

(١) الذخائر: ١٢٥.
(٢) الذخائر: ١٣٢.
(٣) الذخائر: ١٢٦
(٤) لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت –لبنان: ١٥/ ٢٢٠

وكذا تؤخذ عليه صعوبة تركيب الصورة الشعريَّة، كقوله:

وَرَاحَ مِنَهَا يَستَقِيلُ حَيثُ لا
يُقَال مِن عِثَارِهِ فَلَا لَعَا[1]

ويؤخذ عليه أيضًا بعض قفزات الوزن، كقوله:

لَوْلَا وُجُودُ حَيْدَرٍ وَجُودُهُ
لَمْ تَكُنِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَدُرِ النَّدَى[2]

وكقوله:

بِحَمْلِهِ طِفْلًا عَلَى عَاتِقِهِ
يَطُوفُ فِيهِ بِشِعَابِ أُمِّ الْقُرَى[3]

وقوله:

وَلَيْسَ للهِ الْعَظِيمِ نَبَأٌ
أَعْظَمُ مِنْهُ اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْمَلا[4]

(١) الذخائر: ١٢٧
(٢) الذخائر: ١١٣
(٣) الذخائر: ١١٧
(٤) الذخائر: ١٠٨

الخاتمة

تتلخَّص أهمُّ النتائج في هذا البحث الذي تقصَّدنا به أنْ يحتوي دراسة في بلاغة الشاعر الشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ وأسلوبه في مقصورته العليَّة بشكلٍ خاصٍّ، بعدَّة نقاط يمكن أنْ نبيِّنها كما يأتي:

١. اعتمد اليعقوبيّ على تنويع وتلوُّن فنونه البديعيَّة إلى حدٍّ كبير، فلا يكاد يترك فنًّا دون أن يورد منه مثالًا أو أكثر، إذْ اعتمد في رصانة وقوَّة قصيدته الشعريَّة على هذه الفنون التي رآها مصدرًا من مصادر قوَّة الشعر، متماشيًا في ذلك مع أقرانه من شعراء ذلك العصر، كالشيخ محمَّد رضا الشبيبيّ، والشيخ عبد الحسين القرمليّ، والشيخ محمَّد جواد الجزائريّ، وغيرهم، إذْ كان أكثرهم يرى العلوم البلاغيَّة بشكل عام، والبديع بشكل خاص، لوحة تعتمد قوَّة النصِّ على رسمها الدقيق للصورة والمعاني، وتركيبها لتلك الصور.

٢. اعتمد الشيخ محمَّد علي اليعقوبيّ لغة رائعة بسيطة تنساب في أثناء إلقائها وسمعها انسياب الماء من المنحدر الصقيل، كما أسلفنا، وحدَّدنا منها ما يخصُّ أسماء المدن والبقاع والأعلام، وبعض الأفعال وغيرها، مثل (شجا، خوى، السهى، الطلا، الشبا، القهقرى، وشيبة الحمد، والحميري، وآصف بن برخيا، والحارث بن الأعور الهمدانيّ، ويوشع بن نون، والعريش، وثهلان، وضجنان)، وغيرها من المفردات التي قلنا سلفًا إنَّ وجودها لم يؤثِّر في

المستوى العام للغة القصيدة، حتَّى عدَّ أسلوبها سهلًا بمستوى فهم القارئ أنَّى كان.

٣. استعمل الأديب أسلوب السرد الشعريّ في روايته للأحداث التاريخيَّة بكثرة، فقد يورد نصَّ رسالة بشكلٍ شعريّ، كما هي في الواقع، أو يتابع رواية الأحداث التاريخيَّة شيئًا فشيئًا، كما هي في الواقع، وكما وردت في كتب التاريخ والسير.

٤. ومن المؤاخذات التي تؤخذ على النَّصِ قيد الدراسة أنَّه يتجاوز في بعض الأحيان على المعنى المتعارف أو الشائع استخدامه عند الأدباء، وكذلك صعوبة تركيب الصورة الشعريَّة الذي إنْ ركبه الأديب، ضاع المعنى على متلقِّيه، ويؤاخذ حتمًا ببعض هفوات الوزن، ولا يعاب عليه تقديم وتأخير المواضيع ؛ لأنَّه خطأ الجامع.

المصادر والمراجع

* القران الكريم.

١. البلاغة الواضحة، عليّ الجارم، مصطفى أمين، مؤسَّسة الصادق للطباعة والنشر، طهران.

٢. الذخائر، محمَّد عليّ اليعقوبيّ.

٣. المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف، بهاء الدين أبو الفتح محمَّد أحمد بن منصور الأبشيهي، ط١.

٤. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الحسن الزيَّات، حامد عبد القادر، محمَّد عليّ النجَّار، المكتبة الإسلاميَّة للطباعة والنشر والتوزيع.

٥. المنجد في اللغة، لويس معلوف، مؤسَّسة انتشارات دار العلم.

٦. جمهرة الأمثال، أبو الهلال العسكريّ.

٧. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيِّد أحمد الهاشميّ.

٨. ديوان السيِّد محمَّد سعيد الحبُّوبيّ النجفيّ، تصحيح وتذييل: الشيخ عبد العزيز الجواهريّ، المطبعة الأهليَّة، بيروت، لبنان، ١٣٣١.

٩. شعراء الحِلَّة او البابليَّات، الشيخ عليّ الخاقانيّ، منشورات دار البيان، المطبعة الحيدريَّة، النجف الأشرف، ١٩٥٢م.

١٠. لسان العرب، ابن منظور.

١١. معجم الخطباء، داخل السيِّد حسن، دار الصفوة، بيروت، لبنان.

١٢. نهج البلاغة، شرح محمَّد عبده.

الأبحاث

١٣. البديع في شعر الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام وجهاده العلميّ، حوراء كاظم جواد الخزاعيّ، بحث منشور في مجلَّة الكليَّة الإسلاميَّة الجامعة، عدد ٤٦، المجلَّد الثالث.

١٤. مصادر الثقافة التاريخيَّة في المقصورة العليَّة للشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ، حيدر عليّ الفتلاويّ، مجلَّة أصالة، عدد ٣٢-٣٣، تمُّوز ٢٠١٢.